

دَوْرَةُ حَيَاتِنَا فِي الْوُجُودِ

مُنْتَطَلِقُ فَهْمٍ وَتَصَوُّورٍ وَاسْتِحْضَارٍ إِدَارَةِ شُؤُونِنَا كُلِّهَا

عزّام محمد زقزوق *

لا نعلمُ الغَيْبِ! لكنَّ عالمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ ﷻ عَلَّمَنَا فِي الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ وَالْمُهَاجِ الْإِسْلَامِيِّينَ، أَنَّنَا نَحْنُ بَنِي آدَمَ، تَطَوَّرْنَا/تَتَطَوَّرُ فِي الْوُجُودِ السَّرْمَدِيِّ¹ ضِمْنَ دَوْرَةِ حَيَاةِ (Lifecycle) وَاحِدَةٍ قِيَامُهَا خَمْسَةٌ أَطْوَارٍ² عَامَّةٍ وَاضِحَةٍ، وَفِي جُلِّهَا غَيْبِيَّةٍ. قَالَ الْخَالِقُ ﷻ: كَاشِفًا لَنَا (أَفْرَادًا وَمَجَامِيْعَ) عَنِ حَالِ وَشَكْلِ خَلْقِنَا: "وَقَدْ خَلَقْتُمْ أَطْوَارًا"³.¹⁴ وَقَدْ أَجْمَلَ دَوْرَةَ حَيَاةِ تَخَلُّفِنَا وَمَآلِنَا وَمَعَادِنَا بِقَوْلِهِ ﷻ: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَّةٍ مِّنْ طِينٍ ۚ ۱۲ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفُوسًا فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۚ ۱۳ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْسَ عَاقِلَةً فَاخْلُقْنَا أَلْعَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا أَلْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا أَلْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۚ ۱۴ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۚ ۱۵ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ" الْمُؤْمِنُونَ: 12-16. وَمِنْ هَذِهِ الْأَطْوَارِ مَا هُوَ عَامُّ الْبَيَانِ، وَمِنْهَا مَا يَتَأَلَّفُ بِدَاتِهِ مِنْ أَطْوَارٍ بَيْنِيَّةٍ تَفْصِيلِيَّةٍ؛ كَالآتِي:

¹ السَّرْمَدِيَّةُ: اللَّابِدَايَةُ وَاللَّاهِيَايَةُ (Immortality). الْأَبَدِيَّةُ: اللَّاهِيَايَةُ (Eternity). الْأَزَلِيَّةُ: اللَّابِدَايَةُ (Eternity). الْأَمْدِيَّةُ: الصِّفَةُ الْمُؤَقَّتَةُ لِمَا بَيْنَ الْبِدَايَةِ وَالنَّهْيَةِ (Temporality). وَهَذِهِ "الْمَبَانِي" اللَّغَوِيَّةُ هِيَ أَقْصَى مَا تُدْرِكُهُ عُقُولُنَا الْمَخْلُوقَةِ مِنْ "الْمَعَانِي" الدَّلَالِيَّةِ التَّصَوُّرِيَّةِ حَوْلَ حُدُودِ الزَّمَانِ - الْمَكَانِ (Spacetime).

² مِنْ النَّاجِيَةِ الْإِدَارِيَّةِ الْاِخْتِصَاصِيَّةِ تُعَدُّ "أَطْوَارًا" (Phases) وَلَيْسَتْ "مَرَاجِلَ" (Stages) بِوَصْفِهَا: أَوَّلًا؛ مُعْتَمِدَةً (Dependent) الْعِلَاقَةَ فِيهَا بَيْنَهَا. وَثَانِيًا؛ فِي كَوْنِهَا قِيَامُ دَوْرَةِ حَيَاةٍ مَعْلُومَةٍ الْبِدَايَةِ وَالنَّهْيَةِ. رَاجِعُ/رَاجِعِي وَثِيْقَةَ "اسْتِفْهَامَاتٌ مُتَكَرِّرَةٌ".

³ وَفِي هَذَا تَعْمِيقٍ وَتَصْوِيبٍ لَخَطَأٍ فَهْمٍ وَتَصَوُّورٍ مِّنْ حَصَرَ وَقَصَرَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى طَوْرِ "التَّجْمِيعِ وَالتَّخَلُّقِ الْجَنَبِيِّ" ضِمْنَ دَوْرَةِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَتَطَوُّرِهِ فِي الْوُجُودِ؛ هَذَا الْخَطَأُ فِي فَهْمِ الْحَصَرِ وَالْقَصْرِ "قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَعِزَّةٌ، وَقَتَادَةَ، وَيَحْيَى بْنُ رَافِعٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ؛ يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ" تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ (المعروف بـ

"تفسير ابن كثير") - الشَّيْخُ الْإِمَامُ/ عَمَادُ الدِّينِ أَبِي الْفَدَاءِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ كَثِيرٍ الدَّمَشْقِيُّ - تَحْقِيقٌ وَتَرْجِيحٌ وَتَعْلِيقٌ؛ شُعْبُ مَجْرَمِ الْأَرْبُوعِ وَمُحَمَّدُ أَنَسُ مِصْطَفَى الْغَنِّ - الْجُزْءُ الثَّامِنُ - صَفْحَةٌ (261) - الطَّبْعَةُ الْأُولَى: 1431/هـ-2010م - دَارُ الرِّسَالَةِ الْعَالَمِيَّةِ - دِمَشْقُ.

1. **طَوْرُ الدُّرِّيَّةِ (عَالَمُ النَّارِ):** وهو طَوْرٌ عامٌّ بدأ منذُ خُلِقَ آدَمُ عليه السلام من طِينٍ، وَيَنْتَهِي بِبِدَايَةِ طَوْرِ "التَّجْمِيعِ وَالتَّخْلُقِ الجَنِيِّ". قال اللهُ ﷻ: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" الأعراف: 172 وقال ﷻ: "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يُبْنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" يس: 60. وقال رسوله للعالمين ﷺ: "يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًّا بِهِ؟ قَالَ ﷺ: فَيَقُولُ: نَعَمْ. قَالَ ﷻ: فَيَقُولُ (الله ﷻ): قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ؛ قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَبَيَّتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ" 5. {عَالَمٌ غَيْبٍ}

"... إِنَّ التَّوْحِيدَ مِيثَاقٌ مَعْقُودٌ بَيْنَ فِطْرَةِ الْبَشَرِ وَخَالِقِ الْبَشَرِ مِنْذُ كَيْنُونَتِهِمُ الْأُولَى، فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي نَقْضِ الْمِيثَاقِ -حَتَّى لَوْ لَمْ يَبْعَثْ إِلَيْهِمُ بِالرُّسُلِ يُذَكِّرُوهُمْ وَيُحَذِّرُوهُمْ- وَلَكِنْ رَحْمَتُهُ وَحَدَاها إِقْتَضَتْ أَلَّا يَكْلَهُمْ إِلَى فِطْرَتِهِمْ هَذِهِ؛ فَقَدْ تَنَحَّرَفَ، وَأَلَّا يَكْلَهُمْ كَذَلِكَ إِلَى عُقُولِهِمُ الَّتِي أَعْطَاهَا لَهُمْ؛ فَقَدْ تَضَلَّ، وَأَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ؛ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ!" 6.

وَمِمَّا تَبَقَّى لَنَا فِي طَوْرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ طَوْرِ الدُّرِّيَّةِ: الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ؛ الَّتِي انْحَرَفَ مُعْظَمُ النَّاسِ عَنْهَا: كِبْرًا، وَعِنَادًا وَتَقْلِيدًا... إلخ، وَالشَّيْءُ الْآخِرُ الْمُتَبَقِّيُّ هُوَ التَّعَارُفُ الْاِثْتِلَافِيُّ، وَالتَّنَاكُرُ الْاِخْتِلَافِيُّ.

⁴ "آدَمُ عليه السلام هو أبونا وَخَلِيفَتُنَا نَحْنُ الْبَشَرُ الْحَالِيَيْنِ، وَخَلِيفَةُ (وَلَيْسَ أَبًا) مَنْ سَبَقْنَا مِنْ خَلْقِي سَابِقِينَ" د. عبدالله عبدالرحمن المسيد - أستاذ المناخ المشارك بقسم الجغرافيا بجامعة القصيم، والمُشرف على جِوَالِ كَوْنِ الْمُتَخَصِّصِ بِالطَّفْسِ وَالْفَلَكِ، وَمُؤَسِّسُ وَرئيسِ لَجْنَةِ تَسْمِيَةِ الْحَالَاتِ الْمُنَاخِيَةِ الْمُبَيَّرَةِ فِي السُّعُودِيَّةِ - مَقَالٌ "مَنْ كَانَ يَسْكُنُ كَوَكَبَ الْأَرْضِ قَبْلَ آدَمَ عليه السلام؟" بِصَفَرِ سِيَرِ:

⁵ الرَّوَايُ: أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه - الْمَحَدِّثُ: الْأَلْبَانِيُّ - الْمَصْدَرُ: صَحِيحُ الْجَامِعِ - الصَّفْحَةُ أَوْ الرَّقْمُ (8123). خِلَاصَةُ حُكْمِ الْمَحَدِّثِ: صَحِيحٌ. وَكَذَلِكَ حُكْمُ عَلَيْهِ الْعَلَامَةُ الْمَحَدِّثُ/ شُعَيْبُ الْأَرْنَؤُوطُ وَفَرِيقُهُ فِي تَخْرِيجِهِمْ لِمَسْنَدِ أَحْمَدَ بَانَ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ. مَسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ - تَحْقِيقٌ وَتَخْرِيجٌ وَتَعْلِيقٌ: شُعَيْبُ الْأَرْنَؤُوطُ وَعَادِلُ مُرْشِدٌ - الْجِزْءُ التَّاسِعُ عَشَرَ - صَفْحَةُ (302) - رَقْمُ الْحَدِيثِ (12289) - الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ: 1429هـ/2008م - مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ - بَيْرُوتُ.

⁶ فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ (المعروف بـ "تفسير الظلال") - أ. سَيِّدُ قَطْبِ إِبْرَاهِيمَ الشَّاذَلِي - صَفْحَةُ (1391) - الْمَجْلَدُ (3) - الطَّبْعَةُ الشَّرْعِيَّةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: 1417هـ/1996م - تِسْعَةُ مَجْلَدَاتٍ - دَارُ الشُّرُوقِ - الْقَاهِرَةُ - مِصْرُ.

2. **طَوْرُ التَّجْمِيعِ وَالتَّخْلُقِ الجَنِينِي:** وهو طَوْرٌ عامٌ يبدأ من التُّطْفَةِ وينتهي بِبدايةِ طَوْرِ "الحياةِ الدُّنْيَوِيَّةِ" (وهو عالمٌ غَيْبٍ أَرَانَهُ اللهُ ﷻ في أَنفُسِنَا⁷: فَأَصْبَحَ فِي جُلِّهِ عَالَمَ شَهَادَةٍ). وقِوَامُهُ الأطْوَارُ البَيِّنِيَّةُ التَّفْصِيْلِيَّةُ الآتِيَّة:

(1) **النُّطْفَةُ:** وهي التُّطْفَةُ الأَمْشَاجُ⁸ بين الحَيَوَانِ المَنْوِيِّ مِنَ الرَّجُلِ وَالبُؤْيُضَةِ عِنْدَ المَرَأَةِ. قال ﷻ: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَةٍ مِنْ طِينٍ ۚ ۱۲ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ" المؤمنون:12-13. وقال رسولُ اللهِ ﷺ: "نُطْفَةُ الرَّجُلِ بَيْضَاءُ غَلِيظَةٌ، وَنُطْفَةُ المَرَأَةِ صَفْرَاءُ رَقِيْقَةٌ، فَأَيُّمَا غَلَبَتْ صَاحِبَتَهَا فَالشَّبَهُ لَهُ، وَإِنْ اجْتَمَعَتَا جَمِيعًا كَانَ مِنْهَا وَمِنْهُ"⁹.

(2) **العَلَقَةُ:** يكونُ الجَينُ على شَكْلِ العَلَقَةِ¹⁰: وتكونُ عَالِقَةً فِي جِدَارِ الرَّحِمِ. قال ﷻ: "ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً..." المؤمنون:14، وقال ﷻ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ..."¹¹.

(3) **المُضْغَةُ:** تَظْهَرُ فِي هَذَا الطَّوْرِ الكُتْلُ البَدَنِيَّةُ على هَيْئَةِ أَثَرِ إِنْسَانٍ، وَذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ الشَّهْرِ الأَوَّلِ؛ حينما تبدأ خَلايا الظَّهْرِ بالنُّمُوِّ وَالزِّيَادَةِ. قال ﷻ: "... فَخَلَقْنَا أَلْعَقَةَ مُضْغَةً..." المؤمنون:14، وقال ﷻ: "... ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ عَمَلَهُ، وَأَجَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ..."¹².

(4) **العِظَامُ:** حيثُ تبدأ الكُتْلُ البَدَنِيَّةُ تَنمُو مُكَوَّنَةً العِظَامِ. قال ﷻ: "... فَخَلَقْنَا أَلْمُضْغَةَ عِظْمًا..." المؤمنون:14.

(5) **اللَّحْمُ:** وينتهي كِساءُ اللَّحْمِ فِي الأَسْبُوعِ الثَّامِنِ. وَهَذَا يَنْتَهِي طَوْرُ الجَينِ (Embryo)، وَيَبْدَأُ طَوْرُ الحَمِيلِ (Fetus). قال ﷻ: "... فَكَسَوْنَا العِظَمَ لَحْمًا..." المؤمنون:14.

(6) **النَّشْأَةُ الأُخْرَى (النَّسْوِيَّةُ):** وَيَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ تَكْوُنِ اللَّحْمِ على العِظَمِ، وَفِي الشَّهْرِ السَّادِسِ يَصْبِحُ الإِنْسَانُ قَادِرًا على الإِسْتِقْلَالِ عَنِ أُمِّهِ إِذَا خَرَجَ؛ حيثُ تَتَكَوَّنُ فِي الشَّهْرِ السَّادِسِ

⁷ صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ: "سُنْرِيهِمْ وَأَيُّنَافِي الأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ..." فُصِّلَتْ:53. وَهناك مِنَ الشَّهَادَاتِ العِلْمِيَّةِ مَا يُقَرِّرُ وَيُصَرِّحُ بِأَسْبَقِيَّةِ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِكُشْفِهَا وَبَيَانِهَا.

⁸ مَشِيحٌ: مَشِيحٌ: كُلُّ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِطَيْنِ.

⁹ الراوي: عبد الله بن عباس ؓ - المَحَدِّثُ: الألباني - المَصدِرُ: صَحيحُ الجَامِعِ - الصَّفْحَةُ أَوِ الرِّقْمُ (6767). خِلاصَةُ حُكْمِ المَحَدِّثِ: صَحيحٌ.

¹⁰ شَبِيهَةٌ بِالدُّونِدَةِ السُّودَاءِ؛ الَّتِي تَمْتَصُّ الدَّمَ، وَتَعِيشُ فِي المَاءِ.

¹¹ الراوي: عبد الله بن مسعود ؓ - المَحَدِّثُ: البَخَارِيُّ - المَصدِرُ: صَحيحُ البَخَارِيِّ - الصَّفْحَةُ: (3332). خِلاصَةُ الدَّرَجَةِ: صَحيحٌ.

¹² الراوي: عبد الله بن مسعود ؓ - المَحَدِّثُ: البَخَارِيُّ - المَصدِرُ: صَحيحُ البَخَارِيِّ - الصَّفْحَةُ: (3332). خِلاصَةُ الدَّرَجَةِ: صَحيحٌ.

الأسناخ¹³ الرئويّة، ويستطيع الجنين التنفس مُستَقِلاً عن أمّه، وبعد ذلك يكون دور الرّحم الحضانة (Incubation) وحسب. قال **عَلِيٌّ**: " ... ثُمَّ أَنْشَأَهُ خَلْقًا آخَرَ... " المؤمنون:14.

3. **طَوْرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ**: وهو طَوْرٌ عامٌّ يبدأ من الولادة وينتهي ببداية طَوْرِ "الحياة الأخرويّة" {عالمُ شهادتٍ}¹⁴. وهو الطَوْرُ الأقصرُّ أمداً، والمركزيُّ من بين الأطوار العامّة جميعاً؛ لتعلّق الجِزَاءِ والعقابِ بَعْضِهِ. وقوامُهُ الأطوارُ البينيّةُ التّفصيليّةُ الآتية:

- 1) **الوَلِيد** (بالنسبة للذكور): عند الولادة. **الوَلِيدَة** (بالنسبة للإناث).
 - 2) **الصَّرِيخ**: قبل أن يتم أسبوعاً. ذكراً كان أم أنثى.
 - 3) **الرَّضِيع** (بالنسبة للذكور): أثناء الرضاعة. **الرَّضِيعَة** (بالنسبة للإناث).
 - 4) **الفَطِيم**: عند الفطام. ذكراً كان أم أنثى.
 - 5) **الطِّفْل**: حتى سنّ السادسة. ذكراً كان أم أنثى.
 - 6) **الوَلَد** (بالنسبة للذكور): حتى سنّ الثامنة. **البِنْت** (بالنسبة للإناث).
 - 7) **الصَّبِيّ** (بالنسبة للذكور): حتى سنّ العاشرة. **الصَّبِيَّة** (بالنسبة للإناث).
 - 8) **الغَلام** (بالنسبة للذكور): حتى سنّ البلوغ/الحلم. **الغَلامَة** (بالنسبة للإناث).
 - 9) **الفَتَى** (بالنسبة للذكور): حتى يظهر شاربه. **الفَتَاة** (بالنسبة للإناث).
- يوجدُ تقاربٌ وتشابهٌُ دلاليٌّ، وتداخلٌ في المعنى والاستخدامِ نسبيٍّ بين الولد، والصبي، والغلام، والفتى؛ جامعها حدائهُ السنّ.
- 10) **الشَّاب** (بالنسبة للذكور): من البلوغ إلى الثلاثين تقريباً، من أدرك سنّ البلوغ ولم يصلِ إلى سنّ الرجولة. **الشَّابَة** (بالنسبة للإناث).
 - 11) **الرَّجُل** (بالنسبة للذكور): من الثلاثين حتى الأربعين تقريباً. **المرأة** (بالنسبة للإناث).
 - 12) **الكَهْل** (بالنسبة للذكور): من الأربعين حتى الخمسين تقريباً. **الكَهْلَة** (بالنسبة للإناث).
 - 13) **الشَّيخ** (بالنسبة للذكور): حتى الستين تقريباً. **الشَّيخَة** (بالنسبة للإناث).

¹³ الأسناخ: جمع سنخ: الأصل من كل شيء.

¹⁴ شهادتین: من الناس غلينا، ومنا على أنفسنا.

14) **الهِرَمِ** (بالنسبة للدَّكْرِ): ما فوق السِّتِّين تقريبًا. **الهِرَمَة** (بالنسبة للأنثى). يهرمُ المرء؛ حين يتوقف عن التَّطَوُّر والتَّقَدُّم.

قال ﷺ: "... أَوْ لَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ **الْأَنْذِيرُ**..." فاطر:37، وقال رسول الله للعالمين ﷺ: "**اغْتَنِمِ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسِي: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**"¹⁵.

4. **طَوْرُ الْحَيَاةِ الْآخِرِيَّةِ**: وهو طَوْرٌ عَامٌّ يَبْدَأُ مِنْ لَحْظَةِ الْوَفَاةِ وَيَنْتَهِي بِطَوْرِ "الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ" الْأَبَدِيَّتَيْنِ. قال ﷺ: "**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ**"¹⁶ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" العنكبوت:64. {عَالَمٌ غَيْبٍ}. وقوامه الأطوارُ البَيِّنِيَّةُ التَّفْصِيلِيَّةُ الْآتِيَّةُ:

1) **الْحَيَاةُ الْبَرْزَخِيَّةُ**: وهو طَوْرٌ مَشَاهِدٍ (مثل: الضَّجْعَةُ، وَضَمَّةُ الْقَبْرِ، وَسُؤَالُ الْمَلَكَيْنِ، وَعَرْضُ الْعَمَلِ... إلخ) يَبْدَأُ مِنْ لَحْظَةِ الْمَوْتِ. قال ﷺ: "**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ**" المؤمنون:15. وينتهي وقت نَفْخَةِ الصُّورِ الثَّانِيَةِ (الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ). وأدله طَوْرُ الْحَيَاةِ الْبَرْزَخِيَّةِ الْبَيِّنِيَّةِ مِنَ النُّقْلِ الثَّابِتِ (صَحِيحٌ أَوْ حَسَنٌ) مُسْتَفِيضَةٌ حَدَّ التَّوَاتُرِ.

2) **الْيَوْمُ الْآخِرُ**: وهو طَوْرٌ بَيِّنِيٌّ يَبْدَأُ مِنْ نَفْخَةِ الصُّورِ الثَّانِيَةِ. قال ﷺ: "**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ**" المؤمنون:16. وَيَنْتَهِي بِطَوْرِ "الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ" الْأَبَدِيَّتَيْنِ. وقوامه الأطوارُ البَيِّنِيَّةُ التَّفْصِيلِيَّةُ الْآتِيَّةُ:

1) **النَّفْخُ فِي الصُّورِ**: يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصُّورِ نَفْخَتَيْنِ. قال ﷺ: "**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**" الزُّمَرُ:68 ويتضمن:

- **نَفْخَةُ الْفَرْعِ وَالصَّعْقِ**: وهي التي يكون بها إِمَاتَةُ الْأَحْيَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ.
- **نَفْخَةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ مِنَ الْأَجْدَاثِ**¹⁷: وهي التي يقوم بها الْأَمْوَاتُ جَمِيعُ أَحْيَاءٍ مِنْ جَدِيدٍ.

¹⁵ الراوي: عبدالله بن عباس ؓ - المَحَدَّث: الألباني - المصدر: صحيح الجامع - الصفحة أو الرقم (3355). خلاصة حكم المَحَدَّث: صحيح.

¹⁶ مصدر حَيِيَ. حياة، جسم نام حساس متحرك بالإرادة.

¹⁷ إِنَّ اخْتِيَارَنَا لِمُفْطِ "الْأَجْدَاثِ" بِوصفه جامع مانع... ولارتباط مَبْنَى الْجَدَثَةِ (مَضْعُ اللَّحْمِ، وَوَفْعُ الْأَفْئَامِ) مَع مَعْنَى وَدَلَالَةِ خُرُوجِهِمْ مُسْرِعِينَ مِنْ بَعْدِ أَنْ مَضَعْتَهُمُ الْأَرْضُ وَأَكَلْتَهُمْ. فهناك قَبْرٌ وَلُحْدٌ وَجَدَثٌ، والاختلاف بينها يتعلَّقُ بِسِيَاقِ الْحَرَكَةِ وَالسَّكُونِ... والله أعلم.

- (2) **البعث والنشور**: وهو بعث جميع الموتى من قبورهم أحياء.
- (3) **الحشر**: جمع الخلائق جميعاً في موقفٍ واحدٍ؛ لحسابهم والفصل بينهم.
- (4) **نشر الصحف**: إعطاء كل عبد كتابه؛ المشتمل على سجل أعماله التي عملها في الحياة الدنيا.
- (5) **العرض والحساب**: بدء عرض الأعمال والحساب، وما يتبع ذلك من وزن أعمالهم، والمرور على الصراط...
- (6) **الميزان**: نصب الميزان لوزن أعمال العباد؛ لأن الوزن للجزاء، فيكون بعد الحساب على الأعمال؛ فإن حساب العباد هو لتقدير أجور أعمالهم، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها.
- (7) **الحوض**: لقاء المؤمنين بنبيهم ﷺ عند حوض الكوثر.
- (8) **الشفاعة**: يُرغَّب فيها إلى سادة الأتقياء، فيعتدِر عنها الرُّسلُ والأنبياء. ثم يتقدَّم لها رسولُ ربِّ العالمين محمداً ﷺ؛ وهو المقامُ المحمود الذي وعدَهُ اللهُ ﷻ به.
- (9) **اتباع الآلِهَة**: تُؤمَرُ كلُّ أُمَّةٍ أن تتبَعِ الإلهَ الذي كانت تعبُدُهُ في الدنيا. وتظهرُ أنواعُ الآلِهَة التي كانت تُعبَدُ في الدنيا، فيتبعُها عابِدوها.
- (10) **الصِّراط**: المُرورُ على الصِّراط، وهو عسيرُ المرور، مُفزعُ المنظر، يُثبِتُ اللهُ ﷻ عليه أقدامَ المؤمنين كما ثبَّتَ قلوبَهُم في الدنيا على الدِّين.
- (11) **قصاصُ المؤمنين**: بعد عبور المؤمنين الصراط، ونجاتهم من النار، يبقى فيما بينهم حقوق ومظالم كانت في الدنيا، وربُّنا ﷻ يُصَفِّي نفوسهم قبل أن يدخلوا الجنة.
5. **طُورُ الجَنَّةِ أو النَّارِ**: وهو طُورٌ عامٌّ يبدأ من بعد طُورِ "قصاص المؤمنين" البينيِّ التفصيليِّ. ويدومُ أبديًّا؛ إلى ما لا نهاية. وهذا الطُورُ تكونُ نهايةُ دُورَةِ حَيَاةِ الإنسانِ في الوجودِ السَّرْمَدِيِّ.



على أساس هذا البيان الإلهي الإسلامي تُبنى نظريتنا المعرفية الإدراكية لدورة حياتنا في الوجود و"علم الوجود"¹⁸ (Ontology) ... ويُعلم قطعاً وقيناً أنّ دورة الحياة هذه ترتكز على مفهوم وتصوّر واستحضار حقيقة وجودنا وموضعنا فيه؛ حيث اتصال أطوارها، وتواصل اعتمادية ذات الأطوار فيما بينها، وامتناع تجزئتها وتبعيضها ضمن حركته وحراكه. وعليه؛ فإنّ الفطرة السليمة والحكمة البالغة يقتضيان المواءمة مع هذا الحراك؛ بما يُحقّق النفع، ويضمّن الكرامة والعزة، ويديم الخيرية... فمن الناحية الإرادية (Willpower) العامة؛ لا يخفى على كلّ إنسانٍ مسلمٍ مؤمنٍ بالله ورسوله واليوم الآخر الأثر الإرادي العظيم والمستديم لهذا المنطلق في الفهم والتصوّر والاستحضار في/على صلاح إدارتنا لشؤون حياتنا كلّها. وهو أثر لسببٍ أساسٍ في حياتنا، وليس خياراً لنا... وإنما خيارنا فيه التركية أو التدسية، الشكر أو الكفر... وحسب. وبحريّة اختيارنا هذه؛ إرادياً... نستشعر مسؤوليتنا؛ أخلاقياً... وإدارياً... في عمليّة التغيير والإصلاح والنهضة. فمما يُعتبر من بدهيات العقل؛ أنّ فاقد الشيء لا يُعطيه... وأنّ من يسبح في ماءٍ لا يعرف أبعاد وحدود حوضه كان مألّه، لا محالة، الغرق والهلاك. وفي المقابل؛ من الناحية الإدارية (Management) العامة؛ لا يخفى على عاقلٍ سويٍّ، وإن لم يُسلم ويؤمن بالله واليوم الآخر، أنّ كلّ ما كان، وما سيكون، من أثر صنّع الإنسان (وهو يتمثّل في شكل: منتج، أو خدمة، أو نتيجة) أو نتاج براعته وإبداعه (Artifact) في الوجود السرمديّ قد تطوّر/تطوّر ضمن دورة حياة واحدة قوامها خمسة أطوارٍ عامّة واضحة؛ هي: طوّر البلورة (Conception)، ثم طوّر التصميم (Design)، ثم طوّر الإنشاء (Construction)، ثم طوّر الخدمة (Service)، ثم طوّر الإقناء (Retirement). على اختلاف في الأسماء، وتغيّر طفيف في التسميات؛ بحسب اختلاف وتغيّر المجالات التطبيقية.

ففي آخر سني حياته نقد عالم النفس أ. د. إبراهيم ماسلو (Abraham Maslow) نفسه، وتدارك قصور نظريته الشهيرة باسم عائلته، والموضحة للحاجات الإنسانية: "هرميّة الحاجات الإنسانية" أو "نظرية التحفيز الإنساني" (A Theory of Human Motivation)؛ نقد وتدارك على ما انتهى إليه وجعله المستوى الأعلى في الهرم؛ وهو مستوى "سُمُو وتفوُّق الذات" (Self-Transcendence)، متجاوزاً ما سماه من قبل مستوى "تحقيق الذات" (Self-Actualization)¹⁹. وفحوى مستوى "سُمُو

¹⁸ علم الوجود: "فرع من الميتافيزيقا (Metaphysics) يُغنى بدراسة طبيعة الوجود". والميتافيزيقا (أو: ما وراء الطبيعة، أو: ما بعد الطبيعة): "شعبة من الفلسفة (Philosophy) تبحث في ماهية الأشياء وعلّة العلة؛ أي القوة المحركة لهذا العالم. وبكلمة أخرى: شعبة من الفلسفة تشمل علم الوجود، وعلم أصل الكون وتكوّنه (وتوسّعا: الفلسفة في فروعها الأكثر صعوبة وتعقيداً)". والفلسفة: "هي البحث عن الحقيقة من طريق التفكير المنطقي لا الملاحظة الواقعية". المؤرّد الأكبر (فاموس إنكليزيّ - عربي حديث) - تاليف منير البعلبكي - أنقه وراجعته: د. رمزي منير البعلبكي - الطبعة الأولى: 1426هـ/2005م - المتفحفات على النوال: (1259)، (1129)، (1368) - عدد المجلدات: 1 - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان. والحقيقة (Truth) هي الضالّة الكبرى للفلسفة ونشدها!... وهي أيضاً ضالّة من آمن بالله واليوم الآخر!...

¹⁹ A. H. Maslow, "Critique of self-actualization theory", in: E. Hoffman (Ed.), *Future visions: The unpublished papers of Abraham Maslow* (Thousand Oaks, CA: Sage, 1996), pp. 26–32

وتَفُوقُ الذَّاتِ" هذا وجوهه أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَةَ تَنْضُجُ وَتَرْتَقِي وَتَتَسَامَى فِي تَحْقِيقِ ذَاتِهَا بَارْتِبَاطِهَا وارتبائها بغاية تتجاوز إطارها الخبراتي (الخبرة = المعرفة + التجربة)؛ فيما اعتبره هو "الإيثار" (Altruism) و"التعلق بالقيم الروحية الغيبية"²⁰ (Spirituality)²¹. هذا المستوى الروحي الغيبي؛ الذي خلص إليه أ. د. ماسلو²² وعده حاجة إنسانية وجدناه، وما زلنا نجد حقيقته مثبتة ومبينته في نصوص الشريعة الإسلامية الصحيحة؛ ضمن دورة حياة الإنسان في الوجود. وقد ذهبنا به وذهب بنا إلى أبعد من كونه مجرد مستوى ودرجة؛ إلى كونه جوهرًا متغلغلًا، ومظهرًا بارزًا في كافة مناحي حياتنا عموديًا... وأفقياً... لا بل وامتح به المؤمنون من لدن الخالق؛ عالم الغيب والشهادة ﷻ في بيانه الكريم: "الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" البقرة: 3-5. ولأن الغيب مجهول الماهية للإنسان، فهو بالضرورة مجهول الكيفية؛ إلا ما كشفه الخالق ﷻ لعقلنا الإنساني المحدود السعة والإدراك؛ وفيه صلاح شؤوننا كلها في الوجود السرمدي.

ومعلومٌ أيضًا أَنَّ العلوم السلوكية (Behavioral Sciences)، ومنها علم النفس، تضمُّ الأسس الفكرية والأصول والمنطلقات التي تُبنى عليها كافة العلوم الاجتماعية (Social Sciences)؛ والتي عنها ينبثق علم ومهنة وفن إدارة المشروعات (Project Management)؛ بوصفها التطبيق العملي للمعارف، والمهارات، والوسائل والأساليب على أنشطة حياتنا المشروعية (Projectized) كلها؛ لجهة تحقيق الأهداف الموضوعية، وإنتاجية عالية؛ على المستويين الفردي منها والمنظمي (Organizational).

²⁰ وهذا ما يُعرَف ويُعرَف بأصول الفقه الإسلامي بالأحكام الشرعية الإيمانية الاعتقادية الغيبية؛ مثل الإيمان بالله ﷻ، والإيمان باليوم الآخر... إلخ.
²¹ Cfr. A.H. Maslow, "The farther reaches of human nature", in: *Journal of Transpersonal Psychology* 1(1969)1, pp. 1-9; A. Maslow, *The farther reaches of human nature* (New York: The Viking Press, 1971); Mark E. Koltko-Rivera, "Rediscovering the Later Version of Maslow's Hierarchy of Needs: Self-Transcendence and Opportunities for Theory, Research, and Unification", in: *Review of General Psychology* 10(2006)4, pp. 302-317. إن مذهب النَّسَامِي أو النَّعَالِي أو النَّجَاوَزِيَّة (Philosophy Transcendentalism or Transcendental) الذي ذهب وانتبه إليه أ. د. ماسلو "نفسياً" في القرن العشرين الميلادي، قد ذهب وانتهى إليه عددٌ من الفلاسفة "فلسفياً" من قبل، وفي طليعتهم عمَّانوثيل كُنت (Immanuel Kant) وقوامه أَنَّ معرفة الحقيقة لا تُستمدُّ من الخبرة أو التجربة؛ بل من مصادرٍ حدسيةٍ أو روجيةٍ تتجاوز حدود التجربة الموضوعية وتتسامى/تعلو عليها. ويُقصد بمذهب "النَّعَالِي" أو "النَّجَاوَزِيَّة" أيضاً ذلك المذهب الذي وضعه رالف إمرسون (Ralph W. Emerson) وطائفة من الفلاسفة الأمريكيين في القرن التاسع عشر؛ والذي فحواه أَنَّ للإنسان أفكاراً لا تُنبُع من الحواس الخمس أو من القوى العقلية بل تنشأ من إلهام إلهي مباشر، وبأنَّ للإنسان إلى جانب جسده المادي جسداً روجياً ذا حواسٍ تُدرِك ما هو حقٌ وخيرٌ وجميل.
²² ومما يؤسف! التقليد الأعمى، أو عدم أمانة النقل العلمي عن صاحب النظرية في التعاطي مع نظريته عند جُلِّ من استفادوا منها؛ حيث تجدهم جهلاً أو تفلهاً! يُقِفون عند مستوى "تحقيق الذات" دون مستوى "سُمُو وتَفُوقِ الذات" منها.

ومعلومٌ أيضاً أنّ الاستراتيجيات تقودُ الإدارةَ، وتوجّهُها على المدى البعيد. من مُنطَلقاتٍ بَيِّنَةٍ، تجاهَ غاياتٍ (Goals)، يَنبثقُ عنها أهدافُ (Objectives) مُحدّدةٌ ومقيسةٌ ومُتاحةٌ وواقعيةٌ ومُوقَّتةٌ (SMART)، تَتَمَحَوَّرُ حَوْلَ رسالةٍ ومُهمّةٍ (Mission)؛ وبِمَجْموعِها مُقَادَةٌ بِرُؤْيَةٍ (Vision) واضِحَةٍ. وكحقيقةٍ بَدِهِيَّةٍ؛ لا يُعقلُ أن يُبينَ الإنسانُ لأخيه الإنسانَ المنطَلقَ (Base) الذي يجب أن ينطلقَ منه إن لم يَسْتَبِينَهُ هو لنفسه! ففاقدُ الشيء لا يُعطيه! هذا فضلاً عن تحديده الغاية (Purpose) المُقَادَةُ بالرؤى؛ لنفسه هو قبل غيره! وبهذا نفهم قول الله ﷻ: "وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" الدّاريات:21.

وعليه؛ لا يُمكنُنا فهُمُ وتَصَوُّرُ إمكانيّةِ وَضْعِ الاستراتيجياتِ وخُطَطِها؛ والتي بدورها تقودُ الإدارةَ، من قِبَلِ أناسٍ فاقدين أو حتى قاصرين عن معرفةٍ وتحديدِ منطَلقاتِهِم (Basis) أنفسهم في الوجود؛ بادئ الأمر؛ فالخالقُ ﷻ قد وَجَّهَنَا بِالْعَقْلِ وَالْمُشَاهَدَةِ: "قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ" يؤس:35. وإن نَجَحَ هؤلاء؛ فَلِأَمَدٍ قَصِيرَةٍ! ولحدودٍ قَرِيبَةٍ! وحسب.

من هنا... وبالاعتمادِ، على الله ﷻ وشريعته في الوجود كانت نظريتنا "الدَّمَجُ الثَّلَاثِي" (Trifusion)²³؛ والمتمثلة بالنقل الثابت (Authentic Quotation) (الوحي): كتابُ الله ﷻ وسُنَّتُهُ رَسولِهِ للعالمين ﷺ) وَالْفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ (Intact Innateness) (قال ﷻ: "...فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ...") (الروم:30) وَالْعَقْلِ الصَّرِيحِ (Sound Reason) (حقائق، أو حُجَج، أو براهين، أو نتائج، أو وقائع، أو "الممارسات الإدارية الجيدة" { Good Practices }²⁴... إلخ). بالاعتماد على ذلك، مُندمجاً، نستطيع أن نُنظِرَ ونُسيِّرَ إدارياً، وَضَعْنَا الرَّاهِنَ كأفرادٍ وَمُنظَّماتٍ²⁵، ونُدِيمَ إنتاجيَّنا... ومن ثم نَضَعُ الخُطَطَ الاستراتيجية؛ لجهة تحقيق رؤانا

²³ النظرية (Theory)، والمصطلح (Term) من وَضَعْنَا نحن... وهما يُمَيِّلان صُلْبَ وجوهٍ ما نحن بصدده علمياً؛ بالبحث والدراسة والتصور، وعملياً؛ بالاستحضار والتطبيق الميداني؛ إن شاء الله.

²⁴ يشيع في عالم إدارة المشروعات تعبيران إصطلاحيان: "الممارسات الإدارية الجيدة" (Good Practices) و"الممارسات الإدارية الأخوة" (Best Practices). والفرق بينهما ظاهرٌ في كَوْنِ الأولى: جيدة وناقعة في عموم المجالات التطبيقية (Application Areas) المختلفة والمتنوعة (وأصْرُحُ مثال على ذلك؛ "الدليل المعرفي لإدارة المشروعات" (PMBOK Guide)، أما الثانية: فهي الأجود والأنفع في مجال تطبيقي ما؛ بعينه (وأبرزُ مثال على ذلك؛ "التطوير المشترك للبرامج التطبيقية" (Joint Application Development - JAD) في مجال البرمجيات التطبيقية).

²⁵ استخدامنا لكلمة "المنظمة" (Organization) هو للدلالة على أي عملٍ جماعيٍّ مُنظَّم. وهو تعبيرٌ جامعٌ لكافة أشكال العمل التنظيمي؛ المتمثل بن: الشركات، والمؤسسات، والحركات، والتنظيمات، والنوادي، والأحزاب، والمعاهد، والمراكز، والشراكات... الخ. لفظة "منظمة" مَبْنِيٌّ لُغَوِيٌّ يُعْبَرُ عَنْ مَعْنَى إداريٍّ؛ للعمل الجماعي المنظم. وهذا، بالمناسبة، ما اعتمده "معهد إدارة المشروعات" (Project Management Institute - PMI) في معايير القياسية. ومما هو معلومٌ أيضاً أن استخدام التعابير الجامعة مَبْحَثٌ ثابتٌ ومُقرَّرٌ في عِلْمِيٍّ: أصول الفقه، وقواعد الفقه الإسلاميين.

(Visions)، القائدة لغاياتنا (Goals)، والمستجمعة لأهدافنا²⁶ (Objectives) المحددة والمقيسة والمتاحة والواقعية والمؤقتة (SMART).

*مستشار ومُدرب وباحث إدارة مشروعات



²⁶ عقلياً؛ من الناحية العلمية النظرية وضع الأهداف أهم ويسبق إنجاز الأعمال... ومن الناحية العملية التطبيقية إنجاز الأعمال يسبق وضع الأهداف. وكذلك شرعياً؛ النيّة (المقاصد والأهداف) أهم وتسبق إنجاز الأعمال. وفطرياً؛ "إذا صحَّ العزمُ وضُحَّ الطريقُ".